الفصل الثاني

ماهية الأخلاق

لقد خلقنا الله في هذا الكون لنعبده ونعمر أرضه، وعمارة الأرض معناها أن نعمل وننتج ونزرع ونصنع ، ونبدع ونقدم الاختراعات ، ونقيم الحضارات ... إلى غير ذلك.
{وإذ قال ربك للملائكة إني جاعلٌ في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون}.البقرة ٣٠

وإن كانت عمارة الأرض هي غاية لخلق الإنسان، فإنه لتحقيق أي غاية أو هدف لابد له من أسس وإطارات ومبادئ يقوم عليها ولا يقوم إلا بها، ولذا فإن الأخلاق هي المبادئ والأسس التي وضعها الله تعالى لعباده لتحقيق هذا الهدف المنشود.
تماماً كرجل أسس شركة ووضع لها الأهداف ، ثم لم يضع الأطر والقوانين التي يسير عليها الموظفين في هذه الشركة ، فأنى يتحقق الهدف الذي أنشئت من أجله هذه الشركة ؟.

ولذلك فإن إرساء مجتمعاً أخلاقياً إنما يهيئ المجال للعلم والتعلم، والعمل والإنتاج ، والخلق والإبداع.
فالله يريد للإنسان الخير والسعادة والرخاء، ويريد أن يُقرَّ به أيضاً الخير والسعادة والرخاء في الكون كله.

obeikan.com

هل الأخلاق غاية ... أم وسيلة ... أم الاثنين معاً؟

كيف تكون الأخلاق غاية؟

عندما ألقى جعفر بن أبي طالب خطبته على النجاشي قال فيها : أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهليه نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيءاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام- فعدد عليه أمور الإسلام، فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من دين الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيءاً، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا.

إن اكتساب الأخلاق أمر بالغ الأهمية ويحتاج من الدعم والتركيز والاهتمام أكثر بكثير مما نوليه إياه الآن ،بدايةً بالدور الكبير للأسرة حيث تتشكل ٩٠ ٪ من قيم الطفل في فترة السبع سنوات الأولى من عمره ،ثم مروراً بدور لا يقل أهمية عن دور الأسرة وهو المدرسة حيث يصبح المعلم المثل الأعلى للتلميذ ،ومن ثم تتداخل أدوار أخرى في التأثير على قيم الطفل بعد ذلك من أصدقاء وزملاء وإعلام ثم

تختلف المسئوليات وتتبدل الأدوار ليصبح هذا الطفل بعد ذلك زوج وأب وصاحب مهنة وكل هذه عوامل تغير من مفاهيمه وسلوكياته ، فالإنسان بذلك في تشكيل مستمر طيلة حياته لقيمه ومعتقداته ،وهو كذلك يتأثر ويؤثر بصورة دائمة على مجتمعه وبيئته .

ومن هنا يحدث التخبط والارتباك في المجتمع الذي يعاني من اختلاف القيم والمبادئ تبعاً لنشأة كل فرد وتربيته التي تكون في الغالب بلا أساس، ومفاهيم الفضيلة فيه تختلف من شخص إلى آخر، ومبادئ مثل الصدق والأمانة و الحياء واحترام الآخر... إلخ لها معايير تختلف من شخص لآخر حسب تأثير البيئة فيه ، ومن هنا كانت أهمية الاتفاق على مبادئ وقيم وأخلاقيات واحدة يسير عليها أفراد المجتمع كله ، يتربى النشأ عليها ، ويعاقب من يخالفها .

ومن هنا كانت تعاليم الإسلام وتربيته للأخلاق في النفوس غاية ، واهتمامه بكل تفصيله من تفاصيل الحياة حيث لكل ظرف أدب وخلق واجب لابد أن يتبع ،ولذلك وضع الأخلاق والقيم محوراً يدور حوله الدين ،ومنهجاً يسير عليه المسلمين، ولا يختلف عليه ذوو العقول السليمة ،هذا المنهج الواحد والقيم والمبادئ الواحدة التي إذا تمسك بها المجتمع كله أصبح مجتمعاً متماسكاً مترابطاً قوياً مندفعاً بقوة نحو التقدم والارتقاء .

ولذلك شرع الله تعالى العبادات الشعائرية التي تحمل في طياتها تدريباً منظماً على الأخلاق ، بل والأكثر من ذلك أنه ربط مبدأ قبول هذه العبادات أو إحباطها بمدى الالتزام بهذه الأخلاقيات والفضائل من عدمه .

الأدلة على أن الأخلاق في حد ذاتها غاية:

أولاً : شعائر الإسلام تدريب على الأخلاق

إن العبادات التي شرعها الإسلام، إنما هي في الحقيقة تمارين متكررة لتعويد المرء على الحياة بأخلاقٍ كريمة، والارتقاء بها.

فالصلاة:

هي الخشوع والخضوع والتواضع بين يدى الله ،وكأننا نجدد العهد مع الله في كل مرة فكيف يتسنى لمن يقف بين يدي الله خمس مرات في اليوم بأن يظلم أو يسيء لأحد أو يشتم أو يكذب أو يعتدي.

ولذا فقد قال الله تعالى: {**اتل ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة إنَّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولَذكر اللَّه أكبر واللَّه يعلَم ما تصنعون**} سورة العنكبوت٤٥

والصيام :

إن التدريب على حرمان ومنع النفس من حاجات أساسية ومشروعة لمدة شهر كامل كل عام يعزز قدرة الإنسان على التحكم في نفسه في سلوكيات غير مشروعة أو مقبولة ، وخاصةً في أنه لم يشرَع على أنه حرمان للطعام والشراب فقط ، ولكنه حظر لأي إيذاء أو تعدي بالقول أو الفعل وقول الله تعالى يبين الحكمة من وراء الصيام: {**كتب عليكم الصوم كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون**}.البقرة١٨٣

وقال النبي ﷺ : (**ليس الصيام من الأكل والشرب، إنما الصيام من اللغو والرفث فإن سابك أحد ، أو جهل عليك ،فقل: إني صائم**)ابن خزيمة

عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه « رواه البخاري .

والصيام أيضاً يعلم الصبر والجلد والحلم والأناة، والإحساس بالفقراء والمساكين، والبذل والعطاء، وصيانة اللسان.

والزكاة :

أن تقتطع شيء من أموالك لمساعدة الفقراء والمساكين هو تدريب لتزكية النفس وتخليصها من شحها وفي نفس الوقت فهي تزرع التآلف والتعاطف بين المسلمين، ووسيلة للتراحم والشفقة وحب البذل والعطاء.

وقد بين الله الغاية منها بقوله تعالي:{**خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها**}. التوبة

ومن أجل ذلك وسع النبي ﷺ من نطاق الصدقة وأعطاها مفهوما أوسع وأعمق فقال ﷺ: (**وتبسمك في وجه أخيك صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة، وإماطتك الأذى والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة، وبصرك للرجل الرديء البصر لك صدقة**) البخاري.

والحج :

ليست مجرد شعائر تعبدية غيبية ، ولكن المغزى منها التدريب على الصبر والحلم وصون اللسان، فقد قال تعالي :{ **الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب**}.البقرة

وتأمل قول الله تعالي :

{ **إنَّ الإنسان خلق هلوعا * إذا مسَّه الشر جزوعا * وإذا مسَّه الخير منوعا *إلا المصلين * الذين هم على صلاتهم دائمون * والذين في أموالهم حقٌّ معلومٌ * للسائل والمحروم * والذين يصدقون بيوم الدين * والذين هم من عذاب ربهم مشفقون * إن عذاب ربهم غير مأمون * والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون * والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون * والذين هم بشهاداتهم قائمون * والذين هم على صلاتهم يحافظون * أُولئك في جنات مكرمون** } المعارج (١٩،٣٥)

وفي هذه الآيات يبين الله أن النفس البشرية جبلت على الخوف والضعف أمام الأهواء والشهوات فإذا ترك نفسه لخوفها وأهوائها لهلك ولكن من ينجو هو من يقوم نفسه على الدوام عن طريق الالتزام بالعبادات التي مغزاها تدريب النفس على كبح أهوائها وإفراز نتائجها في المعاملات مع الناس، ولذا فمن يستحق التنعم في جنات الله تعالى ليس فقط من يقومون بالعبادات الظاهرية والشعائرية بل هم من يقيمون العبادات ويوفون مع الله العهد في

المعاملات بالتزام أخلاق المؤمنين حقا من أمانة وصيانة العهد وقول الحق والبذل والعطاء .

« إن الخُلق لا يتكون في النفس فجأة ، ولا يولد قوياً ناضجاً بل يتكون على مهل وينضج على مراحل .
وهذا سر ارتباط نمائه بأعمال متكررة، وخلل لها صفة الدوام كالصلاة والزكاة، والتصديق بيوم الجزاء، والإشفاق من عقاب الله .....إلخ
وإذا كانت الطباع الرديئة دائمة الإلحاح على صاحبها تحاول العوج بسلوكه بين الحين والحين، فلن يكفكف شرها علاج مؤقت. وإنما يسكن ثورانها عامل لا يقل قوة عنها يعيد التوازن على عجل إذا اختل» .

الإمام الغزالي
في كتابه (خلق المسلم) في شرح هذه الآية

obeikan.com

ثانيا: العبادات الشعائرية تفسد بسوء الأخلاق

الكثير من الناس يعتقد أن الإيمان هو إقامة الشعائر التعبدية ، وأن كثرة العبادات إنما هو ميزان التفاضل بين الناس، فهذا إنسان صالح إنه لا يترك فرض في المسجد ، وهذه إنسانة صالحة فهي تصوم أغلب أيام الأسبوع ، وهذا يختم القرآن كل ثلاثة أيام ، ولكن هذا الاعتقاد خاطئ، حيث أنه إذا لم تصاحب هذه العبادات معاملات وأخلاقيات كريمة مع البشر فلن تشفع له عند رب البشر ، فغاية العبادات وجوهرها إنما هو تهذيب الأخلاق، فإن لم تتحقق الغاية من هذه العبادات فإنها ستحبط وإن كثرت والدليل على ذلك من القرآن والسنة :

فالشهادتان :

يقول ﷺ :« من قال لا إله إلا الله بحقها دخل الجنة، قيل: وما حقها؟ قال: أن تحجزه عن محارم الله».

والصلاة :

والتي هي عماد الدين، من أقامها فقد أقام الدين ومن هدمها فقد هدم الدين ، وبالرغم من ذلك إلا أنها عرضة لأن تحبط بسبب سوء الأخلاق .

ففي الحديث القدسي يقول الله تعالى :

« **إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتي ، ولم يستطل على خلقي،ولم يبت مصراً على معصيتي ،وقطع النهار في ذكري، ورحم المسكين وابن السبيل والأرملة ، ورحم المصاب** » البزار

وعن النبي ﷺ أنه قال : « **من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعدا**». الجامع الصغير

وعن أَبي هريرة :
يا رسول الله ﷺ : **إن فلانة يذكر من كثرة صلاتها وصيامها وصدقتها، غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها ، قال : «هي في النار» ، قال : يا رسول الله ﷺ، فإن فلانةَ يذكر من قلة صيامها وصدقتها وصلاتها ، وإنها تصدق بالأَثوار من الأقط ، ولا تؤذي جيرانها بلسانها ، قال : «هي في الجنة** » .أحمد

الصيام :
عن أَبي هريرة قال النبي ﷺ :
« **من لم يدع قول الزور والعمل به فليس للَه حاجة في أن يدع طعامه وشرابه** »
[البخاري ، الترمذي أبو داود ، ابن ماجه ، أحمد]

الزكاة :
قال تعالى :{ **قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوماً فاسقين**}.سورة التوبة ٥٣

الحج :
يروى عن أبي هريرة قال النبي ﷺ :
(**إذا خرج الرجل حاجًا بنفقة طيبة ووضع رجله في الغرز فنادى لبيك اللهم لبيك، ناداه منادٍ من السماء لبيك وسعديك زادك**

حلال وراحلتك حلال وحجك مبرور غير مأزور، وإذا خرج بالنفقة الخبيثة فوضع رجله في الغرز فنادى لبيك، ناداه منادٍ من السماء لا لبيك ولا سعديك، زادك حرام، ونفقتك حرام، وحجك غير مبرور» .الطبراني

****

ويقول النبي ﷺ تقريراً وتأكيداً لإحباط الأخلاق السيئة للعبادات :
« ثلاثٌ من كن فيه فهو منافق ،وإن صام وصلى وحج واعتمر ،وقال إني مسلم :إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان » .مسلم

وعن أبي هريرة قال صلي الله عليه وسلم : « هل تدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا يا رسول الله من لا درهم له ولا متاع ، قال : إنَّ المفلس من أُمَّتي من يأتي يوم القيامة بصيام وصلاة وزكاة ، ويأتي قد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، فيقعد فيقتص هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه من الخطايا أُخذ من خطاياهم ، فطرحت عليه ، ثم طُرح في النَّار » . مسلم واحمد والترمذي

وفي حديث آخر ، عن ثوبان عن النبي ﷺ أنه قال :
« لأعلمن أقواما من أُمتي يأتون يوم القيامة بحسناتٍ أمثال جبال تهامة بيضا فيجعلها الله هباء منثورا » ، قال ثَوْبَانُ : يا رسول اللَه، صفهم لنا ، جلهم لنا ، أن لا نكون منهم ، ونحن لا نعلم ، قال :
« أما إنهم إخوانكم ، ومن جلدتكم ، ويأخذون من الليل كما

تأْخذون ، ولكنهم أقوام إِذا خلوا بمحارم اللهَ انتهكوها » .ابـن ماجـه
إذ أن عبادتهم لم تنههم عن محارم الله فأحبطت وسقطت.

وقـد روى عـن النبـي ﷺ أنـه قـال :« **الخلق الحسن يذيب الخطايا كما يذيب الماء الجليد ، والخلق السوء يفسد العمل كما يفسد الخل العسل** » .البيهقــي

فـما قيمـة ديـن بـلا خلـق، ومـا معنـى إيمـان بـلا فضيلـة، ومـا معنـى أن شـخصاً يصـلي ويصـوم ويحافـظ عـلى عباداتـه، وفي نفـس الوقـت فهـو يـسيء إلى جيرانـه ،و يكـذب و ينافـق ، أو يشـهد الـزور، أو يتطـاول عـلى النـاس بألفـاظٍ أو أفعـال غـير لائقـة.

«وخلاصـة القـول في هـذا الأمـر أن الإسـلام جـاء ليخلـص الفطرة مـن شـوائبها، ويهـذب النفـس مـن نزواتهـا، وإنمـا العبـادات التي أمـر بها الإسـلام هـي تدعيـمٌ للفطـرة ، وترويـضٌ للهوى..ولـن تـؤدي العبـادات رسـالتها ،وتبلـغ هدفهـا وتمامهـا إلا إذا كانـت كلهـا روافـد لتكويـن الأخـلاق العاليـة.»

الشيخ محمد الغزالي

****

ثالثاً : أعلى الناس أخلاقاً هو أعلى الناس في منازل الجنة

وهـذا دليـل آخـر عـلى أن الأخـلاق الفاضلـة غايـة ،فاعمـل عـلى نفسـك حتـى تصـل إلى أعـلى الدرجـات .

فعـن أنـس قـال صـلي اللـه عليـه وسـلم : « **إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة، وأشرف المنازل، وإنه لضعيف العبادة. وإنه ليبلغ بسوء خلقه أسفل درجة في جهنم** ».الطبراني

رابعاً: غاية رسالة النبي ﷺ

عندما قال ﷺ :« **إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق** ».أحمد

كل ذلـك يدعـوك للقـول بـأن الكـون كلـه يدعـوك لحسـن الأخـلاق، وأن السـمو بالأخـلاق هـو الغايـة مـن الخَلـق

فالفطرة..... تدعوك لمكارم الأخلاق .

والطبيعة ..... تدعوك لمكارم الأخلاق.

والأنبياء ..... يدعونك لمكارم الأخلاق .

العبادات.....تدريبات على مكارم الأخلاق

الابتلاءات ..... عقوبات على التقصير في خلق من الأخلاق.

السعادة والنجاح ..... الجزاء في الدنيا على حسن الأخلاق.

أعلى درجات الجنان..... هو الجزاء في الآخرة على حسن الأخلاق.

فعندمـا تسـمو بأخلاقـك، فإنـك تصبـح الأفضـل بـين الخلـق، وعندمـا تصبح الأفضـل بـين الخلـق فعندهـا تسـتحق المـكان الأفضـل في الجنـة ، فالجنـة مـكانٌ يسـتحق أن تتزيـن لـه بأخلاقـك .

كيف تكون الأخلاق وسيلة ؟

وكما أن الأخلاق غاية في حد ذاتها فهي أيضاً وسيلة لتحقيق:

- **احترام وتقدير الذات :**

إن تقدير الذات من الحاجات العليا للإنسان ،فلو صغر الإنسان أمام نفسه ،لهانت عليه نفسه ورضي بكل نقيصة ،وخاض بكل معصية دون أن يهتم بالنتائج ، فنفسه أمامه حقيرة لا تستحق غير ذلك ، فيظل يهوى بها دركاتٍ ودركات، وكل إنسان ذو مبادئ وأخلاق لا يرضى عن ذلك بديلاً لأنه يرى نفسه عزيزة لا يرضى أن يذلها بمعصية أو خسيسة ، فهو يسمو بها لأعلى الدرجات ،ولقد كرمنا الله ورفعنا على جميع مخلوقاته ، حتى الملائكة أطهر الخلق هم مجبولون على الطاعة ليس لهم خيار إلا الطاعة والعبادة، أما نحن بنو آدم خلقنا الله وكرمنا وأسجد الملائكة لأبونا آدم ، ونفخ فيه من روحه ، وأعطانا حرية الاختيار ،فلماذا نلقي كل هذا التكريم وراء ظهورنا ،ونهين أنفسنا بذل المعاصي ، وفساد الأخلاق.

- **احترام وتقدير الناس :**

إنك لا تستطيع أن ترى إنساناً ذا خلق دون أن تحترمه وتعجب بأخلاقه ويترك في نفسك شيءاً ،فها هو سيد الخلق عليه أفضل الصلوات والتسليم لم يستطع أحد رآه أو سمعه أو تعامل معه أن يمنع نفسه عن حبه واحترامه والإعجاب به حتى من غير المسلمين ،وقد وصفه الله تعالى في كتابه { **وإنك لعلى خلقٍ عظيم**}. القلم ٤

obeikan.com

فأسهل طريق لاجتذاب قلوب الناس إليك واحترامهم وثقتهم بك هو حسن الخلق.

حسن الخلق يستر كثيراً من السيئات كما أن سوء الخلق يغطى كثيراً من الحسنات

- **النجاح في الدنيا :**

فالدين قد رسم لنا أساساً أخلاقيات لنسير عليها لو أننا التزمنا بها فسنفوز بالدنيا والآخرة ، ولأن الدين هو عبارة عن خطوات منطقية فإن هناك أناساً غير متدينين ، أو حتى غير مسلمين وناجحين في الحياة بسبب أخلاقهم ، فقد توصلوا بعقولهم وذكائهم إلى أن الأخلاق الحسنة تؤدي إلى النجاح والسعادة وحب الآخرين، فلما ساروا على هذا الدرب تميزوا وارتقوا في أعلى المراتب، فما بالنا نحن المسلمين ونحن نملك العقيدة والمنهج الأخلاقي الكامل الذي رسمه لنا الله تعالى .

- **الفلاح في الآخرة :**

وبالرغم من أن النتائج متساوية في الدنيا لمن سلك مسلك الأخلاق سواءً كان متديناً أو غير متديناً، أو مسلماً أو غير مسلماً ،ولكن الفلاح في الآخرة لا يكون إلا للمؤمن الذي نيته لله وحده ،لا يبتغي بها إلا وجهه، وليست لمصلحته الشخصية أو الدنيوية، فهو بذلك قد ربح الدنيا والآخرة.

- **الإصلاح والتقدم :**

فـإن أردنـا أن تنهـض أمتنـا وتسـبق الأمـم الأخـرى فعلينـا أن نبـدأ بالأخـلاق ، فـكلٌ يبـدأ بنفسـه ، ثـم بمـا اسـترعاهم اللـه عليـه ، ثـم بمحيطـه ، فلقـد سـاد الصحابـة والمسـلمون الأوائـل بأخلاقهـم العـالم بعـد أن كانـوا مجتمـع صغـير جاهـل يـأكل طبعضـه بعضـاً، فظهـروا عـلى أمـم الأرض قاطبـةً ،ومـا ذللنـا وتراجعنـا إلا بعدمـا تخلينـا عـن الأخـلاق وتطهـير النفـس ، وضللنـا وتبعثرنـا في متاهـات ليـس لهـا بدايـة ولا نهايـة .

obeikan.com

متى تكون الأخلاق فضيلة؟!

كلنا يعرف أن التحلى بالأخلاق الصالحة فضيلة .....فهل هذا الكلام صحيح على مطلقه ..... أم للفضيلة مقياس آخر؟

كنت أتعجب عندما أسمع حكايات عن زهاداً ورهباناً ، منعوا أنفسهم من كل الشهوات ، وعاشوا فقط ليتعبدوا لله في الصوامع والجبال ، وعندما تعرضوا لعرَض من أعراض الدنيا ، أو خالطوا الناس ذلُّوا ووقعوا أشد ما يكون الذلل .
فكنت أتعجب أليسوا هؤلاء أفضل مَن ملكوا أنفسهم وتحكموا بأهوائهم؟ أليس هؤلاء أقدر الناس على ضبط أخلاقهم ، فكيف بهم الذلل بكل هذه السهولة فيقعون في أسوأ ما يمكن أن يقع فيه بشر.
وتأملت حكمة النهي في ديننا العظيم عن الرهبانية والعزلة، فقد قال ﷺ: «**لا رهبانية في الإسلام** ».
وقد تعامل النبي ﷺ نفسه مع كل صنوف البشر ، وكان مختلطاً بالناس في مختلف المناسبات، فلا تستطيع أن تجد معاملة إنسانية إلا وتجد صدىً للنبي صلى الله عليه وسلم في هذا الموقف كيف كان يتعامل فيه ، سواءً مع زوجة أو ابن أو ابنة أو طفل أو صاحب أو قريب أو مسلم أو غير مسلم أو فقير أو غني أو ذو مكانة أو حقير أو عدو .أو كبير أو صغير... وهنا كانت تظهر عظمته وروعة أخلاقه.
حتى أن الله وصفه في كتابه العزيز فقال: { **إنك لعلى خلق عظيم**}. القلم ٤

لقد استحق النبي ﷺ هذا الوصف لأنه اعتلى كل الفضائل ، وما كان ليحظى بهذا الشرف إلا من خلال بروز أخلاقه العالية من خلال تعامله مع الناس ، ومواجهته لمختلف المواقف ، فلم يكن يعيش منعزلاً في صومعة ، أو فوق جبل .

فعرفت آنذاك أن الفضيلة لا يمكن أن يتصف بها إنسان إلا عندما يتعامل مع الناس ويتعامل مع أخلاقهم، وإلا فكيف تبرز الفضيلة إلا من خلال خوض معترك الحياة.

ولذلك فقد قال النبي ﷺ : « **إن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خيرٌ من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم**». صحيح ابن ماجة

ولقد خلق الله الإنسان اجتماعي بطبعه يحتاج إلى الناس ويحتاجون إليه، ولم يطلب منهم أن يناقضوا طبيعتهم، ولكن وضع لنا المعايير التي يجب أن نتعامل بها مع بعضنا البعض.

(إن الإنسان من بين جميع الحيوان، لا يكتفي بنفسه في تكميل ذاته، ولابد له من معاونة قوم كثيري العدد حتى يتمم به حياته طيبة، ويجري أمره على السداد، ولهذا قال الحكماء: إن «الإنسان مدني بالطبع» أي هو محتاج إلى «مدينة» فيها خلق كثير لتتم له السعادة الإنسانية، فكل إنسان بالطبع وبالضرورة يحتاج إلى غيره، فهو كذلك مضطر إلى مصافاة الناس ومعاشرتهم العشرة الجميلة ومحبتهم المحبة الصادقة، لأنهم يكملون ذاته ويتممون إنسانيته، وهو أيضا يفعل بهم مثل ذلك. فإذا كان كذلك بالضرورة فكيف يؤثر الإنسان العاقل العارف بنفسه التفرد والتخلي؟ .

فالقوم الذين رأوا الفضيلة في الزهد وترك مخالطة الناس وتفردوا عنهم إما بملازمة المغارات في الجبال، وإما ببناء الصوامع في

المفاوز، لا يحصل شيء من الفضائل الإنسانية، وذلك أن من لم يخالط الناس ولم يساكنهم، لا تظهر فيه العفة ، ولا العدالة، بل تصير قواه وملكاته التي ركبت فيه باطلة، لأنها لا تتوجه لا إلى الخير ولا إلى الشر. فإذا بطلت ولم تظهر أفعالها الخاصة بها صاروا بمنزلة الجمادات والموتى من الناس.

لذلك يظنون ويظن بهم أنهم أعفاء وليسوا بأعفاء، وأنهم عدول وليسوا بعدول، وكذلك في سائر الفضائل . والفضائل .. هي أفعال وأعمال تظهر عند مشاركة الناس ومساكنتهم وفي المعاملات وضروب المجتمعات. ونحن نعلم ونتعلم الفضائل الإنسانية التي نساكن بها الناس ونخالطهم ونصبر على أذاهم، لنصل منها وبها إلى حال أخرى).

مسكويه

obeikan.com